الحاجب المنصور

— ١ —

للاستاذ عبد الهادي المختار

في يوم من أيام ربيع سنة ست وثلثمائة للهجرة طاب نسيمه وراق جوه وصفا أديمه . خرج ثلاثة فتية من طلاب جامعة قرطبة يتأبطون كتبهم الى خارج اسوار المدينة حيث المزارع والحقول والحدائق والازهار يروحون عن نفوسهم ويستذكرون ما استعصى عليهم من مباحث .

جلس الفتيان الثلاثة على العشب وسط الخضرة بين المياه ثم فتحوا كتبهم وصاروا يستمعون الى احدهم يقرأ ويشرح وغرقوا في بحر من التفكير والتتبع وقد اصغى اثنان منهما الى زميلهما الذي استهواهما بسحر إلقائه وحسن تتبعه ودقة تصرفه وتعبيره وتفسيره .

كان الطلاب الثلاثة في الدورة المنتهية من جامعة قرطبة وكان كل منهم من بلد والجميع في سن متقاربة . أولهم وهو الذي كان محور المناقشة والبحث شاب ربع القامة مسبط الهامة براق العينين يشع منهما الذكاء . نافذ النظرات يتسلط على مخاطبه بقوة سحرية سرها في عينيه . قدم قرطبة من الجزيرة الخضراء طالباً للعلم والأدب وسماع الحديث .

أما الاثنان الآخران وكل منهما من بلد فلم يكونا كصاحبهما قوة تأثير وجاذبية وسحر ولذا أصبح الأول

مع تصاوير الادوات ولدي فرمان بتسلم الادوات ومنحنا في مقابل ذلك قرى واملاكا علاوة على راتب تقاعد كنا نتقاضاه شهرياً (٤)

خضر العباسي

(٤) المذكرات الخطية لجدنا أحمد بك

بحكم صفاته متقدماً عليهما في كل الأمور حتى في المذاكرة والتتبع والبحث .

وكما هي الحال عند جميع الطلاب في جميع الأقطار والامصار والازمنة اذا أصابهم السأم والملل واعتراهم الضجر والكلل نبذوا بكتبهم ناحية وتجاذبوا أحاديث لا صلة لها بالعلم . احاديث مسلية تروح عنهم وتذهب سأمهم وملالهم فيذكرون النكات المضحكة والآمال الصبيانية والاحاديث التافهة .

وهكذا رمى فتياننا الثلاثة كتبهم جانباً وظلوا يتجاذبون اطراف الحديث مما هنا وهنالك إلا أن الفتى الأول كان يشارك صاحبيه عبثهما وهزلهما وضحكها في الظاهر فقط أما فكره فكان في واد آخر . كان يحلم بآمال عظام ومشاريع جسام . وانتبه الرفيقان الى صاحبهما والى شذوذه عنهما في أفكاره .

سأله احدهما عما يشغله . ويعكر عليه صفوه :

— مالك قد شطت بك الأفكار وسرح بك الخيال ؟

فأجابه الثاني :

— انا اعرف الناس بما يشغله . إن صاحبنا محمد يا صديقي يحلم ان يصبح أمير الأندلس .

ثم ضحك الصديقان .

اعتدل محمد عند ذاك في جلسته وقطب ما بين حاجبيه ونظر شزراً إلى صاحبيه :

— ولم لا أصبح امير الاندلس وسيدها ؟

فلم يحر الاثنان جواباً . وصمت . ثم تابع حديثه واستمر في كلامه :

— ليتمن على كل منكما ما يتمناه . فاني سأصبح أميراً على الاندلس .

كان الرفيقان يكتمان ضحكة يوشكان ان ينفجرا بها . ولكنها كتما ذلك احتراماً له .

قال الاول :

— والله لا أدري ايها الصديق ماذا اتمنى . ولكنني كما تعلم احب التين ولا اشبع منه . وما يقدم في الجامعة على المائدة

منه لا يشبع نهماً مثلي . فاذا صرت أميراً على الاندلس ولي على بلد يكثر التين فيه ولك المنة .

وابتسم .

اما الآخر فكان كثير الدعابة والهزل فقال :

— اتمنى يامحمد غفواً . بل ياسيدي الأمير . ان اركب حماراً ووجهي الى الخلف .. عريان . قد طلى جسمي بالعسل كي يتجمع الذباب عليه . ثم يدار بي مشهراً في السوق .

واستغرق في الضحك .

ولكن فتانا محمد ظل على هدوئه ورزانته وتفكيره . حتى اظلم الافق بعد أن غابت الشمس فعادوا الى المدينة قبل ان تغلق ابواب سورها وكل لاه في احلامه وافكاره .

حل يوم الامتحان . فانعقد في جامعة قرطبة مجلس حافل بكبار العلماء والادباء والفقهاء . وشيوخ المحدثين والمفسرين . وكبار الفلاسفة والمتكلمين . وارباب اللسن والفصاحة . وعلى رأسهم صاحب الاندلس وسيدها . خليفة المسلمين الحكم بن عبد الرحمن .

تتقدم الطلاب واحداً إثر الآخر يجيبون عما يسئلون .

وتقدم محمد بقلب ثابت وجأش رابط . غير هياب . رافع الرأس . واعجب الخليفة ومن حضر ببديهته وقوة عارضته وسرعة جوابه وبلاغته . ثم إجتياز الامتحان بتفوق . وحظي بجائزة الخليفة وهي خلعة خلعها عليه .

عاد الى أقرانه الذين التفوا حوله يثنون عليه ويهنئونه . وبينهم صاحباه اللذان لم ينفكا عن دعابته . فأسرا بأذنيه ان يحقق امنيتهما اذا تحققت امنيته . ولكنه لم يجبهما بل ظل كعادته هادئاً ساكناً وقوراً .

بدأ دور الحياة العملية من تأريخ محمد . ولكن الهدف الذي صوب إليه افكاره لم يتغير . ولم يتطور . يريد الملك والسيطرة . لم يكن من عائلة معروفة . ولم يكن له ماض . ولم يتعرف على ذي مكانة يتوصل بجاهه ونفوذه الى ما يطلب .

يطل قصر الاميرة صبح زوج الحكم بن عبد الرحمن على ساحة واسعة اتخذ منها طلاب الحاجات مكاناً لجلوسهم

وانتظارهم الاذن على الاميرة . ولا تكاد تخلو تلك الساحة من اولئك الطلاب . لما للاميرة صبح من منزلة سامية ومكانة رفيعة عند زوجها الخليفة . ولما لها من كلمة مسموعة عند رجال الدولة .

لم يكن اصحاب الحاجات هؤلاء كلهم ممن انعم الله عليهم بالفهم والعلم والتحصيل بل كان جلهم يستعين في تحبير رقعته وكتابة مطلبه بكتاب انتشروا في ارجاء تلك الساحة انناء اجر كما يفعل الناس في ايامنا هذه .

امتهن محمد مهنة الكتابة . وجلس في تلك الساحة منصرفاً الى عمله فبز على اقرانه . لأنه كان كاتباً منشئاً بليغاً فصيحاً . يحسن السبك . متمكناً في اللغة . جيد الخط واظطر بقية الكتاب الى الانتقال من تلك الساحة الى حيث لا ينافسهم فتى مثل محمد .

أعجبت الاميرة صبح بالرقع التي صارت تقدم إليها اعجاباً بالغاً . ودهشت بها ايما دهشة . فسألت عن كاتبها ثم زاد اعجابها فأحبت رؤيته . واطلت من نافذة على الساحة فرأت شاباً وسيماً في عنفوان الشباب وزهرة العمر وميعة الصبا . منكباً على عمله . منصرفاً عما حوله الى التحبير والتسطير والاجادة وقد تكأكأ حوله الناس .

وأصبح لشدة اعجاب سيدة البلاد بالكاتب ان اخذت تنظر اليه يومياً وهو لا يدري ولربما كان يدري ويتصنع اللادرية

مات للاميرة صبح وكيل لها على املاكها فلم تجد فيمن حولها من يصلح لاعباء تلك المهمة وذلك المنصب غير صاحبنا محمد الكاتب فاستدعته .

مثل بين يديها فسألته من وراء ستار وكلمته من خلف حجاب . بضعة أسئلة اجابها عنها بكل ذلاقة وطلاقة واحترام لا يشوب ذلك شيء من الضعف أو الوهن أو الرياء . لم يضطرب ولم تؤثر على رزانته ووقاره مظاهر الابهة والفخفخة المحيطة به .

وبعد أن علمت الأميرة ان اسمه محمد بن ابي عامر المعافري من حمير وان امه تميمية . وانه تخرج بتفوق في جامعة قرطبة . عهدت اليه بالمهمة فقبلها شاكراً .

الينبوع

— ٣ —

بند العلامة السيد محمد الغزويني المتوفي سنة ١٣٣٥ هـ بعث به الى ابن أخيه السيد أحمد مجيباً له على طلبته وهي كسوة شتاء ، والذي سبقه رقم — ٢ — هو أيضاً له ولكن وقع سهو في التاريخ واضافة إسم مهدي الى محمد . (الينبوع)

من العم الذي ما خص بالانعام والافضال إلاك وفيه عنك ينجاب سحاب الهم والغم اذا ما هو ناجاك ، لعمر الله يا أحمد قد ناديت من لم يمسك الامساك كفيه ، ونبهت فتى لم تملك الغفلة عما رمت عينيه ، واسمعت هاما لم يكن يصرف عن كل مهم من مهمات الورى في الدهر اذنيه وايقظت فتى كالاسد الخادر وثاباً لدى المعضل لم يفترش الترب ذراعيه ، وقد ازعجني ما كنت حررت وقررت ،

كانت تلك الدرجة التي رقاها هي اولى الدرجات التي تسنمها بعد ذلك فوصل إلى امنيته وحقق اطماعه وآماله

أصبح محمد بن ابي عامر المعافري يتولى ادارة املاك سيدته بكل امانة واخلاص ونشاط . ثم اظهر في تلك الاملاك تحسناً بيناً خلال أيام وجيزة فاشتد وثوق السيدة بوكيلها واعتمادها عليه فاطلقت يده في التصرف والتولية والعزل

ثم أخذت تكيل له المدح والثناء أمام الحكم سيد البلاد وبذلك بدأ نجم المعافري بالتألق واللمعان . ولعل لقلب السيدة وعواطفها نحو . أثر عظيم في ذلك التقدم .

« يتبع » عبد الهادي المختار

ومن رائق ذاك النثر أوردت وأصدرت ، بان البرد قد أم ليفرى اليوم مغناك ، وفي الجند تلقاك ، وقد شبهته خوفاً بجالوت ، واصبحت من الدهشة مبهوت ، فلبيك وسعديك ويا مستنهضاً للنصر والنجدة في الحرب حنانيك ، رعاك الله أنا قد رعيناك ، وانجدناك من عسكرنا المنصور حقا نحو مغناك ، وسقنا اليك جيشاً كالملا في البأس والنجدة مأموراً لعلياك ، من الفرسان والابطال والشجعان والاقران مشحوناً ، وفي ألوية التأييد والتوفيق والتسديد والتشييد مقروناً ، وامرنا على الميمنة الفرو انماني وينتظم اليه الف صنديد ، ورتبنا على الميسرة المأهود مع جند اليه إنتظم كالاول تعديد ، وهيأنا رئيس الجيش مع كل رئيس باسل في الحرب ألفين ، وأوقفنا هناك الخز والسنجاب قلباً وجناحين ، فمذ تمت صفوف الحرب في تعبئة الجيش ، وقد آن أوان الرمي والضرب ، وقد دارت رحاها وعلى الندب هناك البرد قد أقبل في قلة تدبير ، ومن جهل بنا ظن وقد خاب ، بان ليس لنا جند وأصحاب ، فمذ شاهد ما أذهل منه في الوغى الفكره ، وقد أذهب منه جيشنا السكره وقد رتب من عقل منه في الميمنة الريح الشمالي ، الذي يمنعه أو في رداء نسترداه ، وفي الميسرة الثلج الذي أضعف شيء يتوقاه ، وقد ضم كثيراً من جنود البرد البارد في الجيش جناحين وقلبا ، كما قد نشر الالوية المعقودة الارياح سحباً ، فناداهم منادينا كما في يوم بدر شاهت الوجوه للغوم ، وياتعساً لكم من فئة ظلت كما ظلت اولي السوم ، وناديا أمير الحرب بالحملة والكر ، وأرسلنا من الرجالة الاسهم ترمي شرراً في الجمع كالنصر ، فما كان سوى نحر جزور مده أو حلبة شاة ، واذا بالجمع من عسكره المنشوم قد ولى وقد عاد الجمع أشتات ، ولم ترتفع الغبرة إلا وجوه يريد بحد السيف قد عاد صريعاً وعفيرا ، وما أقبلت الخيل من الميدان إلا وبكانون لديها موثقاً عاد أسيرا ، فاهديناه موثوقاً لعلياك ، وقدمناه مأسوراً لمغناك ، فاما أن يكن منا وأما ان نفاديه فداءا ، ويادام لك الحاسد في الدهر فداءا .